

مجموع الناقدة العربى المعاصر فى

المصطلح، المنهج، المثاقفة

د.على خذرى
قسم اللغة العربىة
جامعة باتنة

ملخص:

تتناول هذه الدراسة إشكالية: المصطلح، المنهج، المثاقفة، باعتبارها من العوامل التى تهيم على الفكر النقدي المعاصر. وتعمل على تسهيل التعامل وضبط النظريات والمناهج فى إطار العلوم الإنسانية والاجتماعية. وقد طرحت هذه الإشكالية أسئلة يهيم عليها الهم النقدي. وقد تعددت اختيار هذه الأسئلة وتعددت اختيار أجوبتها المختلفة، لأن المهم فى تقديرنا، ليست الإجابات التى نقترحها، بقدر ما تهمنى الأسئلة نفسها.

Résumé

Cet article étudie la problématique de la terminologie, de la méthodologie et de la culture, vue leur importance pour l'esprit de la critique contemporaine, mais aussi pour l'élaboration des théories, la normalisation et l'exactitude des méthodes. Elle facilite la tâche à ceux qui s'intéressent aux sciences humaines et sociales.

Nous avons soumis cette question à l'analyse pour soulever certains problèmes de la critique contemporaine, car l'importance ne réside pas dans les réponses trouvées, mais dans les questions elles-mêmes.

أولاً: مدخل

تحاول هذه الدراسة أن تحاور آراء مجموعة من النقاد العرب المعاصرين، في مسائل نقدية مركزية شغلت اهتمامهم، وسادت واقع النقد العربي في مرحلتنا الحالية، وأن الاقتصار على بعض هؤلاء لا يعني بالضرورة أن غيرهم لم يتساءل حولها، أو أنه لم يكن مهوماً بها، وإنما الاقتصار على هذه الفئة يجعل العمل أكثر منهجية ويدخله ضمن السيطرة الزمنية.

من المسائل المتداولة التي تُولف الإشكال النقدي الراهن: المصطلح، المنهج، المثاقفة. وقد وجدت تلك المسائل لها سبيلاً إلى ذهن الناقد العربي المعاصر نتيجة التحول الفكري الذي عرفه النقد الغربي، وقامت بصدده تساؤلات كثيرة هنا وهناك في الفضاءات النقدية العربية، وتبناها مجموعة من النقاد العرب، واعتبروها مسائل جوهرية يجب الأخذ بها باعتبارها مشروعاً نقدياً معاصراً به نحاول تجاوز الماضي إلى المستقبل.

في حين وقف منها البعض الآخر موقف المتشكك في جدواها عربياً لأسباب شتى، منها أن لها مرجعيات ثقافية لا تمت بصلة إلى المرجعيات الثقافية العربية، ومنها أنها في أحسن أحوالها تقدم بعض الفائدة للناقد ولكنها ليست النقد.

وقد اخترت هذه المسائل بالذات لأن عالم النقد المعاصر لم يصل فيها إلى رأي حاسم، ولذلك سميتها باسم المسائل، ولم اختر لها اسماً آخر متفقاً عليه، إذ إنها ما تزال مثار جدل وحوار، كالحوار الذي يحتدم بين أنصار الحداثة وأشياح الأصالة في كل أمور الحياة المادية والمعنوية.

وأكبر الظن أن ذلك الخلاف بين دعاة الفكرة ومناوئها سيبقى ما بقي الفن الأدبي، وإن كان من المشكوك فيه أن النقد سيصير في يوم من الأيام نظريات أو أصولاً تصبح محل إجماع.

وكان المنهج الذي سرت عليه في تناول هذه المسائل يبدأ بشرح فكرة الناقد في كل مسألة، وبيان أهميتها وموقعها في النقد العربي المعاصر. ومن هنا كانت هذه الدراسة في حقيقتها دراسة تصل كل فكرة بأشباهاها، وتورد من النصوص النقدية ما يجلي وجه المسألة، ويكشف عن اتجاهها وفلسفتها. وقبل استعراض هذه المسائل أريد أن أنبه إلى أنني، اعتمدت مدونة واحدة. هي كتاب "أسئلة النقد" لجهاد فاضل، وهي مجموعة من الحوارات أجراها مع النقاد العرب في مختلف البلدان العربية. إن هذه المواقف تعبر عن هموم الناقد العربي في فترة الثمانينيات، وقد يكون جرى تحول في مواقف النقد بعد ذلك، أو هي تطوير لمواقف سابقة.

ثانياً: المصطلح

من القضايا النقدية المعاصرة التي أصبحت مثار اهتمام النقاد المعاصرين مسألة المصطلح، لماله من أهمية خاصة في الممارسات النقدية، وفي كل مرحلة من مراحل تاريخ الوعي الأدبي، تطرح إشكالية المصطلح وعلاقتها بالنص وتتابع التساؤلات عن حدودها المعرفية، ولا يمكن الوصول إلى هذه الحدود، إلا إذا انفتحنا على الرؤى التي قدمها نقادنا. فمثلاً ينظر عبد القادر القط إلى المصطلح كمفهوم متغير من ناقد إلى آخر، ويرى بموجب هذا المفهوم أن هناك دلالات متعددة لمصطلح واحد، ولذلك فهو يدعو النقاد أن يحددوا مصطلحاتهم بأنفسهم حتى يمكن التعامل معها؛ ذلك لأن تحديد المصطلح أمر عسير، بمعنى أنه إذا حدد فهو يحدد من مواقع مختلفة وانتفاءات متباينة تبعاً للنقاد والتزاماتهم وموقفهم فيقول: "ومفهوم المصطلح من المشكلات العويصة في تفكيرنا اليوم، فهو لا يحمل تعريفاً منهجياً محدداً نستطيع من خلاله أن نتبين موقفنا منه، ولكل كاتب تعريفه الذي يحمله، والذي لا يوافق الآخر عليه؛

ولهذا السبب فإن كل باحث معاصر مطالب بأن يقدم بين يديه مفهومه للمصطلح لكي يكون الآخرون على بينة من أمرهم في تعامله معه...¹.

وهي دعوة لا تختلف كثيراً عن اقتراح شكري عياد الذي دعا إلى: "أن الناقد الذي يقدم مصطلحاً جديداً بالنسبة للنقد العربي، بالنسبة إلى لغة النقد المألوفة، عليه واجب هو أن يحدد المعنى الذي يقصده بهذا المصطلح وليس فقط لأن المسألة جديدة، ولكن يصح أيضاً أن يكون الناقد له رؤية لهذا المصطلح"². ويرى عبد النبي اصطيف أن المهتمين بالنقد العربي الحديث سئموا فوضى المصطلح التي تسود هذا النقد، ذلك أن هذه الفوضى التي قادت المعنيين بهذا النقد "وبدرجات متفاوتة إلى حيرة مربكة، تشمل التفكير والتعبير والفهم والتواصل والتحاور والتناظر، وماذا يبقى من جوهر النقد الأدبي إن تعرضت جوانبه المختلفة هذه لهذا الاضطراب المقلقل"³.

فهو يرفض تعدد الوعي أو الوعي المتعدد لمفهوم المصطلح، لأنه يخشى أن يضمّنه القارئ معنى خاطئاً للمفهوم الذي أراده له صاحبه مما قد ينتج عنه إدراك غير سليم لجوهر المصطلح.

إذن فالمصطلح الذي لا يشير إلى دلالات معرفية محددة سيحدث لا محالة إرباكاً داخل الواقعيين: الثقافي والحضاري اللذين ارتبط بهما، وحرى أن يحدث فوضى في الدلالات المعرفية عند أصحاب الأطر الثقافية والمعرفية المغايرة.

هذه الفوضى التي ارتبطت بالمصطلح النقدي الذي أفرزته أطر ثقافية ومعرفية مختلفة عن أطرنا الثقافية والمعرفية في العالم العربي، هي حقيقة يجب على النقاد العرب المعاصرين التسليم بها لنخرج من الأزمة، بدلاً من اتهام كل من يختلف مع الآخر بالتقصير، وبالرغم من ذلك فإن جذور أزمة الإشكال النقدي أعمق

1 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، الدار العربية لكتاب، ص 212.

2 - المرجع نفسه، ص 168.

3 - د. عبد النبي اصطيف، المصطلح الأدبي في الثقافة العربية الحديثة (مشكلات الدلالة ومواجهتها)، نشر مجلة مجمع اللغة العربية. مجلد 75، ج 1، دمشق، ص 188.

من ذلك بكثير، فالمسألة ليست مصطلحا نقديا مستوردا نتوه في تحديد دلالاته، ولكنها أزمة فكر بالدرجة الأولى، أزمة ثقافية قبل أي شيء آخر. ويكاد أحمد اليابوري أن يتفق مع الرأيين السابقين؛ غير أنه يختلف في أسلوب التعامل في الطرح، وفي طريقة استخدامه والصعوبات التي تواجهه في تحقيق رؤيته "إن أول ما يوجه النقاد العرب هو أنهم لم يوحّدوا مصطلحاتهم، ولا يعقدون حلقات دراسية لتحديد مفاهيمهم، والوسائل والطرق التي يمكن أن يتعاملوا بها لتطبيق المنهج على الأدب العربي"¹.

من الواضح أن إشكالية المصطلح عنده إشكالية أساسية، إذ أننا نواجه مصطلحات مختلفة وربما نواجه مصطلحات بمفاهيم متعددة، كما ذهب أندري مارتني "علينا أن نجتهد في ألا نستعمل مصطلحات خاصة بهذه الدراسة أو تلك دون أن نحددها ودون تبرير استعمالنا لها"². فالناقد في الحقيقة يخشى اختلاط المفاهيم واضطراب الحدود بينها، ومن ثم فإن اليابوري يقترح إيجاد آليات للروابط الأدبية المبنية على اتصالات حقيقية على شكل ملتقيات أو مجالس علمية، أو مجالات متخصصة تطبق فيها هذه المفاهيم المشتركة وتجسدها حتى تصبح معلومة مشبعة بمفهوم معين (أي مصطلحا ناجزا) حتى نصل إلى دلالات معرفية نقدية شبه متفق عليها. ذلك "لأن المصطلحات في حاجة ماسة إلى نسق يضبطها ويكشف عن معانيها، لأنها هي التي تجعل الإنسان يميز بين الأشياء ويربط الصلات مع غيره من بني جنسه"³.

1 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص 87.

2 - André, Martinet : Economie des chargements Berne, 20 édition, 1964, Page12.

3 - د. الشيخ بوقربة، المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث، مجلة علامات، المجلد 10، ج 40، جدة، ص 321.

بينما يرى جبرا إبراهيم جبرا "أنه لا مفر من الإقرار بأن حركة المصطلح متصلة بحركة النقد الغربي، أو قل في العالم كله، أكثر من أي شيء آخر بغير موارد¹.

فالناقد يرى أن قضية المصطلح تتجاوز النتاج العربي تجاوزا يتيح للعناصر غير العربية دورا كبيرا في تكوين ثقافتنا النقدية. لكن علينا حين نفيد من الفكر الغربي أن نحسن استخدام هذا الفكر، وعيار هذا الحسن أن يتحصن الناقد بثقافة تراثية نقدية عربية تمكنه من إقامة المعادلة الناجحة ما بين الأصالة والمعاصرة.

في حين تطرح سلمي الخضراء الجبوسي مسألة المصطلح من زاوية الترجمة، فهي تخشى أن لا يستجيب المترجم للمصطلح للغة التي ينقل إليها، وينتج عنه فهم غير حقيقي "لأن الشخص الذي تجده يملك مصطلح الشعر العربي، ومصطلح الشعر الإنجليزي قد لا يريد أن يترجم، لا يريد أن يخوض هذه العملية الشاقة وأنا حتى الآن لم أعثر علي أي إنسان يملك المصطلحين معا"².

ومما لا شك فيه أن موقف الناقدة من الترجمة يثير أمورا جوهرية تطرح علي المستوي العملي إشكالات يصعب البت فيها، فسؤالها من يستطيع أن ينقل مصطلحا من لغة إلي أخرى؟ وهل هناك من النقاد من يملك مصطلحين في الوقت نفسه؟ تساؤل يثير هما مشروعا، ذلك لأن الأزمة التي تواجهنا ترجع إلي فشل في نقل المصطلح النقدي إلي العربية من ناحية، أو فشل فهم دلالاته من جانب الملتقي من ناحية أخرى، دون أن نعترف في شجاعة بأن الأزمة ليست أزمة مصطلح بل أزمة فكر وحضارة، نعم هناك نقل للمصطلح النقدي "لكن أزمة المصطلح لم تكن أبدا أزمة مصطلح نقدي عربي، فالمصطلحات التي أفرزتها الحداثة الغربية في تجليانها في المدارس النقدية الحديثة من بنيوية وتفكيكية تنير أزمة عند قراء الحداثة

1 - جهاد فاضل ، أسئلة النقد ، ص 76 .

2 - المرجع نفسه ص 161 .

الغربية ذاتها، وتواجههم نفس مشاكلنا مع الفارق، وترتفع الدعوات بين الحين والآخر لتوحيد المصطلح النقدي حتى نصل إلى دلالات معرفية نقدية شبه متفق عليها"¹.

حقيقة أن الإطلاع على المعارف الغربية يمد في آفاق الناقد العربي ويوسع افقه، ويجعله قادرا على المقارنة، ومحيطا بكل جديد، على أساس "أن النقد لا يجدد إلا إذا جدد نظامه المفهومي، أو قل أنه لا يتحول إلى حادثة نقدية إلا عندما يستحدث جهازا معرفيا يباشر به النص الأدبي كما لم يباشر به السابقون"².

أما موقف عبد المالك مرتاض من المصطلح فإنه يحذر من خضوع الناقد العربي للنقد الغربي خضوعا تاما ويدعوه إلى التمعن فيه واستعباده قبل أن يعممه في الكتابات العربية المعاصرة "إن الكثير من المصطلحات لا يفهمه حتى الذين يروجون له في كتاباتهم، إنني أتهم؟ لماذا لأن هذه المصطلحات في الغرب نفسه، في فرنسا نفسها، تجد النقاد غير متفقين عليها، فكيف إذن يجيز أحدا لنفسه أن يترجم باجتهاد هذا المصطلح أو ذاك، ثم يتعصب له ويروج له ويعممه في الكتابات العربية المعاصرة"³.

إن عبد المالك مرتاض يطرح قضية الناقد في تعامله مع مصطلحات النقد الغربي، فهو يرى أن النقل عن الحادثة الغربية يفتح الطريق أمام التبعية الثقافية ثم يكرسها، ثم إننا نرتكب إثما حينما ننقل المصطلح النقدي الغربي، وهو مصطلح فلسفي بالدرجة الأولى بكل عوالمه المعرفية إلى ثقافة مختلفة هي الثقافة العربية دون إدراك للاختلاف، ومن ثم فإن هناك خطورة في الترويج للمصطلح الغربي في ما يراه من الافتتان بتمثله والالتزام به دون تمييز.

1 - عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998 ص 33.

2 - عبد السلام المسدي، النقد والحادثة، بيروت، 1983، ص 16.

3 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، المرجع السابق ص 220.

وبالرغم من هذا التحذير، فإنه قد استطاع أن يحقق شيئا من التوازن في فكره بين النقد العربي والغربي علي أساس من الاختيار المستنير مع التمسك بالشخصية العربية الأصيلة.

وفي الأخير فإنه مهما نظر للمصطلح - على الرغم من كل الكلام الذي قيل فيه- سيكون من الأجدي علميا أن نعد المصطلح مسألة تحمل دائما في طياتها المسكوت عنه، لكي تفتح أفقا جديدا للاستكشاف.

ثالثا : في المنهج

كيفية النقد والأسس التي يقوم عليها، تلك هي المشكلة القائمة في مجال الدراسات النقدية المعاصرة، وقد وضعت طرائق مختلفة لحل هذه المشكلة، وبالتالي تباينت الإجابات عن السؤال القائم. كيف أنقد وعلى أي أساس؟ نبعنا لاختلاف التصورات الفكرية للنقاد، بمعنى أن المناهج النقدية التي اتبعت والمقاييس التي روعيت أثناء النقد مرتبطة بالبنية الفكرية التي يصدر عنها النقد. وفي هذا الصدد حاول عبد القادر القط أن يقدم إجابة عن هذا السؤال بقوله: "أنا اتبع ما يسمي بالنقد الجمالي أن صح هذا التعبير. أنا اعتبر النص الأدبي عملا فنيا له مقوماته الخاصة في بنيته وفي صورته الشعرية، إن كان شعرا في شخصياته وأحداثه وقضاياها وبناؤه الفني إن كان رواية أو مسرحا"¹.

إن الناقد ينتمي إلي المدرسة النقدية التي أسس لها العقاد وطه حسين، اللذان كانت مرجعيتهما تاريخية ورومانسية، غير أن الفكر النقدي الإنجليزي الذي يمثله وردزورث وكلوريدج. قد أثر في توجيه فكره النقدي، فهو يدعو إلي منهج يسميه المنهج الجمالي، الذي يبحث في خصائص النص الفنية المميزة له عن النصوص غير الأدبية.

وفي الإجمال، يبدو أن عبد القادر القط لا يقدم بديلا نقديا، بقدر ما يسعى إلي حل مشكل آني، لا يمكنه الصمود أمام التفاعلات والتحويلات الأدبية. ولكن يحفظ له

1 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص 201 .

أنه يقدم تصورا أوليا واضحا للعلاقة التي ينبغي أن تكون بين الثقافة العربية والأجنبية ولو أنه لا يقدم الآليات التي تحكم هذه العلاقة التناقضية.

ولعل شكري عياد - من بين جيل رواد النقد المعاصر- الذين ألحوا علي قضية المنهج لحل الإشكال القائم في مجال الدراسات النقدية "كل ناقد يصنع منهجه في ضوء رؤيته لوظيفة الفن ووظيفة النقد، أنا منهجي يبدأ من هذه المسلمة، لكن كل المشكلات تنفرع عنه"¹. وبطبيعة الحال فإن المفاهيم الفكرية التي صدر عنها لحل هذا الإشكال لا تنفصل عن بنيته الفكرية التي صدر عنها في رؤيته لوظيفة الفن والنقد. فقد حرص علي أن يتميز منهجه من خلال الرؤية الوظيفية للتحقق بواسطته الخصوصية وأصالة الذات.

فشكري عياد ينظر إلى المناهج كظاهرة متغيرة من ناقد إلى آخر، فهي تتحدد من مواقع مختلفة وانتماءات متباينة تبعا للنقاد والمدارس التي ينتمون إليها فيقول: "تتعدد المناهج بتعدد النقاد، لكن في نظري إن الناقد الذي يطبق مرة المنهج النفسي، ومرة المنهج الاجتماعي، ومرة المنهج التكاملي ناقد غير ناضج"².

فهو يرى أن الناقد الحقيقي هو من يتكئ على رؤية جمالية وفلسفية أما من لا يمتلك هذه الرؤية، فهو كاتب يمارس تمرينات على الكتابة كل مرة يجرب منهجا من المناهج.

وفي السياق نفسه يطرح جبرا إبراهيم جبرا مشكلة المنهج في النقد العربي المعاصر، إذ يرى أنه من الضروري اخضاع الظاهرة الأدبية، ومن ثم الحدث الأدبي لمناهج العلوم، إدراكا منه لتخلف مناهج الدراسات الإنسانية، ورغبة منه باصطناع المناهج التي تستخدم في العلوم فيصريح: "لست ضد منهج معين أو مع منهج معين، أظن أن القضية الآن لم تعد التحيز لمنهج ضد منهج، القضية الآن هي

¹ - المرجع نفسه.

² - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص 174.

قضية المنهجية نفسها، نحن نفتقر إلى هذه المنهجية أصلاً، ونحن نفتقر إلى الصيغة التي تجعل من النقد علماً¹.

وهذه النقلة الكبيرة في الرؤية النقدية، لا يمكن أن تكسب شرعيتها إلا على المستوى التجديدي الصرف، حيث يعزل الحدث الأدبي أو الظاهرة الأدبية عن سياقها الخاص، ويدفع بها كأى حدث طبيعي، أو ظاهرة طبيعية إلى معامل التحليل، للكشف عن النظام أو النظم التي تحكمها واستخلاص القوانين العامة وراء هذا النظم.

فالناقد الناجح هو الذي يحقق بمنهجه متعة المعرفة العلمية على مستوى المفاهيم والمصطلحات، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان مؤمناً بمنهج معين، ومزود بمعرفة فنية عميقة وذائقة جمالية رفيعة فيها كثير من الأدبية.

وإذا كان هذا الانفتاح المنهجي قد أخذ طريقه لدى بعض النقاد المعاصرين، وأصبح من همومهم، فإن عبد المالك مرتاض يرى أن إشكالية المنهج "ستظل قائمة لأنها إشكالية فكرية، تحتاج إلى وقت طويل، وتحتاج إلى أن ترصد لها جهود علمية متضافرة ومتوالية، من أجل أن تبلور منهاجاً نقدياً عربياً..."².

فالناقد يعلن عن ضرورة الممارسة النقدية الطويلة لاكتساب مهارة واسعة، وإغنائها بما يمكن استيعابه من تجارب الآخرين، على نحو يعينه على تحقيق منهج عربي يضاهي ما يشهده النقد العربي المعاصر، غير أننا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن الناقد لم يعد يهمه اصطناع منهج عربي أصيل، بل نراه استحال إلى داع إلى المنهج البنيوي نتيجة انفتاحه على هذا المنهج بقوله: "أجمع على أنني لم أكن بنيويًا، وإنما كنت ذا منهج داخل هذه النزعة البنيوية..."³.

1 - المرجع نفسه، ص78.

2 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص216.

3 - المرجع نفسه، ص217.

بالرغم من أن هذا الاتجاه الذي اتبعه الناقد قد قدم نتاجا نقديا بالغ الأهمية، وحقق في جانبه التطبيقي نتائج معتبرة؛ إلا أنه لم يحل من أن ترتفع ضده بعض الأصوات متشككة في جدواه.

ومن هنا نفهم أن عبد المالك مرتاض حاول أن يجمع عدة معطيات من النقد المعاصر - البنيوية، السيميائية، الألسنية، الشكلائية...، ولكنه لا يتبع منهاجا واحدا، وإنما يدخل داخل المناهج دون تحديد. وبما أن الذهنية التي نشأت فيها هذه الأسس والمناهج قد تغيرت "يتعين على الباحث العربي أن يلجأ إلى أسس ومناهج تفرزها ذهنية جديدة يعيش أبعادها ويتجاوب مع واقع عصره وزمانه"¹.

والناقد يؤكد هنا على ضرورة التماشي مع تطور العلوم الإنسانية، ليفيد من معطياتها حتى يتمكن من التعامل مع النصوص الأدبية تعاملًا علميًا وفق المناهج والنظريات المعاصرة.

وإذا كانت مشكلة المنهج ما تزال تشغل حيزا من تفكير المنشغلين بالنشاط النقدي، فإن الحل الذي يقدمونه يظل مقبولا - على اختلافه - إلى أن يظهر حل آخر أكثر فاعلية - فلا نهاية للبحث - ولا نهاية للكشف. وكل دراسة جديدة، هي إضافة تنويرية لها أهميتها - وإذا كان البعض ينتشك من إمكان قيام منهج عربي أصيل للنهوض بالفكر النقدي العربي المعاصر، فإن الجهود التي بذلت وما تزال تبذل في دراسة الظواهر الأدبية تؤكد أن مثل هذا الشك لم يعد له مبرر.

ربعا: المثاقفة

المثاقفة مصطلح بالغ العراقة والجدة في الوقت نفسه، ذلك لأنه يشير إلى تلاقي وتقاطع الثقافات والحضارات المختلفة وأخذ بعضها من بعض على أساس

¹ - د. جمال شحيد، في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان قولدمان، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1، 1982، ص6.

من حوار يعاد إنتاجه لصالح هذه الثقافة أو تلك "على اعتبار أن الثقافات تتفاعل وتتداخل ويقترض بعضها من بعض بدون قيود وشروط إذا كان ما يقترض لسد ضرورات وحاجات، وأما ما زاد على الضرورات والحاجات فإن هناك أوليات نفسانية تتدخل لتحديد كفايات التعامل والافتراض"¹، وقد شد هذا المصطلح كثيرا من النقاد المعاصرين، ومن بينهم عبد القادر القط الذي ينطلق من رؤية انتقائية في فكره النقدي فحينما يعالج مسألة التراث يقف بين المتعصبين للمثاقفة والمتعصبين للتراث، ويقدم بديلا لا يخلو من غموض هو ما يسميه الصالح في التراث والصالح في الحداثة الغربية، ولكنه لا يقدم المقاييس العلمية التي يبنى عليها هذا الانتقاء، فليس ما يراه صالحا، صالحا بالضرورة لغيره.

ويبدو أن الحاضر بالنسبة إليه هو المعيار المفترض، هذا الحاضر الذي أخذ بيد من التراث وبيد أخرى من حداثة الغرب قائلا: "إن التراث ممتد في نفس كل إنسان بصورة أو بأخرى بقدر يختلف باختلاف ثقافة الإنسان والفن الذي يكتب فيه، فالتراث العربي ليس كله صالحا للبقاء، وليس كله صالحا لكي ينتفع به، أو صالحا لهذا العصر الذي نعيشه فيه..."².

فالرؤية الانتقائية هي التي توجه تفكيره، في مسألة المثاقفة يُقبل ويدبر، ويدعو إلى الأخذ من التراث الأجنبي، ولكنه يتحفظ، ربما للحفاظ على خصوصية الثقافة والأدب العربي، لأن كل عملية مطابقة بين الأدب العربي والغربي هي عملية مسح، وبالتالي فهي عملية مرفوضة "لا نستطيع إطلاقا أن نجعل الأدب العربي الحديث صورة من الأدب الغربي، وإلا كانت صورة ممسوخة فالحداثة بهذا المعنى مرفوضة"³.

1 - محمد مفتاح، مشكلة المفاهيم (النقد المعرفي والمتناقضة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ص8.

2 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص188.

3 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص188.

بينما يميل شكري عياد إلى اعتبار المثاقفة أمراً ضرورياً لأن الانقطاع عنها سيقود النقد إلى العقم وعدم الفاعلية، ويقودنا إلى التراجع نحو الهامشية "أنا في صف التفاعل الدائم، ولا يوجد نمو أبداً بدون تفاعل، تفاعل الحضارات شرط لنمائها وازدهارها المستمر"¹.

وهو يعتقد أن ثمة عجزاً لدينا في إنتاج المفاهيم النقدية والمناهج العلمية، مما يستوجب ضرورة الإطلاع عليها في ثقافة الغير حتى تتمكن من الاستفادة منها. بيد أن هذه المثاقفة ينبغي أن تكون استقراء للننتاج الفكري الغربي وليس فرضاً. ومن ثم يتحتم علينا أن نصرف إلى تحليل هذه الثقافة ودراساتها دراسة واعية لنعرف منها ما يفيدنا فنأخذه، ونستغني عما لا يستقيم مع هويتنا وثقافتنا.

ومن ناحية أخرى، يحذر جبرا إبراهيم جبرا من تبني ثقافة مشوهة لا تتلاءم وفكرنا ولا تنسجم مع واقعنا، ويرى أنه لا بد من التمييز بين الثقافة كما تطرح في أوروبا والثقافة في العالم العربي، بسبب انطلاقتها من واقعين مختلفين يقول: "المثقفون العرب مصابون الآن بصدمة الثقافة النقدية، هذه الصدمة أصابت الكثير من النقاد والدارسين بنوع من الذهول بحيث لا هم الآن يستطيعون أن يفهموا حقيقة ما يجري في الساحة النقدية في فرنسا، لكثرة الأسماء ولكثرة الأساليب، ولكثرة الطرق أو الطرائق النقدية، ولا هم يرضون بما استلموه عن أساتذتهم من أساليب النقد وطرائقه"².

فالناقد يدعو إلى التمهّل في المثاقفة مع الغرب إلى حين استيعاب العناصر النقدية الوافدة، حتى ندرك أبعادها، ومن ثم نخلق نوعاً من التوازن بين المكونات القومية والعالمية، لا شك في أن هذا المعيار غير كاف لإصدار حكم عام على مدى شيوع العناصر الغربية في تكوين ثقافة الناقد، ما لم يقابله دور كبير في تكوين ثقافة

1 - المرجع نفسه، ص 173.

2 - المرجع نفسه، ص 76.

الناقد التراثية حتى يكتسب مناعة، ولكن المفارقة تكمن في أن نقدنا منفتح على المؤثرات الفنية والأدبية الغربية، ولم يطور مجاله بكيفية تمكنه من فرض نفسه كما يقول غالي شكري "ولا يعيننا نحن العرب أننا استخدمنا التراث الغربي في كثير من فنوننا الأدبية الحديثة لأسباب حضارية خارجة عن إرادتنا. ولكن العيب هو إنكار هذه الحقيقة بأن نتجاهل رصد المؤثرات الأجنبية في أدبنا الحديث حتى نتعرف على أدبنا معرفة أعمق. ولا ريب في أن هذا الميدان من ميادين النقد العربي لا يزال بكرًا ويحتاج إلى جهود أجيال كاملة"¹.

وفي الحقيقة فإن كثيرا من المتقنين العرب لم يقوموا حتى الآن بتفكير يراجعون فيه علاقة الثقافة العربية بالغرب والذين قاموا بالتفكير بقوا على مستوى النظرية. إن معرفة الدور الأساسي لهذه المؤثرات يمكن أن يعرفنا كذلك على الطريقة التي يمكن أن نستخرج بها الغنى الهائل للأدب العربي سواء ما كان كامنا فيه أو ما أحدثته هذه المؤثرات. إن معرفة الذات تمر حتما بمعرفة الآخر، "وتجاهل دورها الأساسي (المؤثرات الأجنبية) تجاهل لشيء جوهري في تركيب الساحة الأدبية العربية المعاصرة"².

وهناك ملاحظة مماثلة يؤكدتها عز الدين اسماعيل بقوله "إن الغرب ليس بالضرورة هو النموذج للمعاصرة على الإطلاق، ولكن فيه أيضا ما يمكن أن يندمج مع المادة التراثية يتوحد معها ويصنع شيئا له تميزه الخاص"³

فهو يرى أن النموذج الغربي ليس بالضرورة الأمثل بل هناك نماذج أخرى للمعاصرة غير النموذج الغربي، ولكنه بالإمكان الاستفادة منه وإدماجه في ثقافتنا،

1 - د.غالي شكري، سوسولوجيا النقد العربي الحديث، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص16.

2 - حسام الخطيب، مقترحات مبدئية باتجاه نظرية عربية في الأدب، الموقف الأدبي رقم 121، مايو 1981، ص25.

3 - جهاد فاضل، أسئلة النقد، ص240.

إذا وقفنا منه موقفا نقديا واعيا، ولكن هل يعد هذا الموقف رفضا للمثاقفة؟ إن هذا الموقف ليس رفضا، إنما هو موقف يعطي للناقد العربي الحق في أن يتخير من الثقافة الغربية ما يناسبه.

والحقيقة إن عز الدين اسماعيل لم يفصل في قضية المثاقفة، ولم يطرح البديل عنها، وإنما ترك الأمور بين بين، والواقع إن المثاقفة عنصر متمم لعناصر الثقافة الأصلية.

أما موقف عبد المالك مرتاض من المثاقفة، فيعكس وعيا سلبيًا واضحًا نحوها، إذ يرى أن إعطاء الحياة الحقيقية لنقدنا المعاصر يتم عن طريق استنهاض ذاتنا، لا عن طريق المثاقفة يقول: "أولا أنا أرفض بدون تردد أن نقلد المناهج الغربية لا ينبغي أن نأخذها كبضاعة كالبضائع الكمالية التي نستشير بها من الغرب ونحن إن لم نفعل ذلك، فلا ينبغي أن نعد أدباء ولا نقادا، وإنما سنعد من المجترين، ومن المتخلفين ومن أولى التبعية للغرب فكريا، كما كنا من أولى التبعية له اقتصاديا وصناعيا"¹.

وأول ما يلاحظ أن عبد المالك مرتاض يرفض التبعية الذهنية للثقافة الغربية وتكريسها دون إدراك للاختلاف المعرفي بيننا وبينها.

غير أن هذه الوجه يصعب الأخذ به بدون تحفظ؛ لأنه يخالف الواقع الثقافي المعاصر، كما يخالف الممارسات النقدية التي أجراها مرتاض في بعض كتبه التي لم يتردد فيها في الإقبال على المناهج الغربية والنزعات النقدية السائدة في فرنسا والعالم، لا سيما كتابيه "بنية الخطاب العربي"، و"النص الأدبي من أين وإلى أين؟" ومهما يكن رأينا في موقفه من المثاقفة فإننا لا نستطيع إلا الاعتراف له بما لموقفه من فاعلية إيجابية ضد التحجر والسكونية ومن دور في بناء النقد الذي شهده الأدب العربي المعاصر.

1 - المرجع نفسه، ص 216.

ومن الواضح أن كثيرا من المفاهيم الأساسية التي كانت موضع اهتمام النقاد العرب كانت متقاربة، إن لم نقل متحدة -حتى أننا لا نستطيع في اطمئنان- أن نستخلص من آرائهم تصورا متكاملا لهذه المسائل، وأن يكون فيما أبدوه من أفكار وممارسات إضافة معرفية إلى حقل النقد المعاصر.

خامسا: النتائج

نخلص مما سبق إلى أن دراستنا للإشكال النقدي ووعي الأزمة، قد كشفت عن مجموعة من النتائج منها:

1- يمكن اعتبار هذا النقد متوازنا لا يذهب بعيدا عن التراث ولا في المعاصرة المستغلقة، بل إن معظم النقاد يتحصنون بثقافة عربية أصيلة مكنتهم من إقامة المعادلة ما بين الأصالة والمعاصرة.

2- إن أغلب النقاد يتسمون بالمنهجية الأكاديمية ويتحلون بالذائقة النقدية ويستجيبون للنظريات النقدية المعاصرة.

3- إن النقد العربي المعاصر لم يقدم بدائل للنقد الغربي، بل أن بعضهم ظل يأخذ عن هذا النقد بعض الأفكار النظرية وبعض التعقيبات التطبيقية، ونجم عن ذلك خلط بين الأصيل والوافد في نقدنا المعاصر.

4 - بل إن بعض النقاد يبدي نظريا ما يعكس ممارسته النقدية التطبيقية.

5 - نقل مغلوط لبعض مصطلحات النقد الأدبي الغربي إلى النقد العربي المعاصر مما شكل إشكالا في استخداماتها.

6 - عجز النقد العربي المعاصر عن وضع نظرية للنقد.

7 - هيمنة الروح الذاتية رغم ادعاء الموضوعية.

8 - إن النقد العربي المعاصر فشل في اصطناع مصطلح نقدي جديد خاص به تمتد جذوره في واقعنا الثقافي العربي، كما أنه اخفق في تنفيذ المصطلح الوافد في عواقبه

الثقافية الغربية، لأنهم استخدموه في معزل عن خلفيته الفكرية الفلسفية مما أدى إلى
الفوضى والاضطراب في الاستعمال.

مراجع البحث:

- 1- جهاد فاضل، أسئلة النقد، الدار العربية للكتاب.
- 2- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون، والآداب، الكويت، 1988.
- 3- عبد السلام المسدي، النقد والحداثة، بيروت، 1983.
- 4- محمد مفتاح، مشكلة المفاهيم (النقد المعرفي والمثاقفة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
- 5- الشيخ بوقربة، المفاهيم الأدبية في النقد العربي الحديث، مجلة علامات، المجلد العاشر، ج40، جدة.
- 6- عبد النبي اصطيف، المصطلح الأدبي في الثقافة العربية الحديثة (مشكلات الدلالة ومواجهتها)، نشر مجلة مجمع اللغة العربية، مجلد 75، ج1، دمشق.
- 7- جمال شحيد، في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان قولدمان، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1، 1982.
- 8- غالي شكري، سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
- 9 - حسام الخطيب، مقترحات مبدئية باتجاه نظرية في الأدب، الموقف الأدبي، العدد 121، دمشق، مايو 1981.
- 10- André Martinet, économie des chargements, Berne, 20 édition, 1964.